ظاهرة التضادّ اللغوي في العربية من منظور ابن قتيبة(276هـ) والزمخشري(538هـ)

Linguistic Antonomy in Arabic from the Perspective of Ibn Qutaybah (276 AH) and Al-Zamakhshari (538 AH)

أ.د. مبارك بــلالي*

جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر)

mebarekblali@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2022/09/30	تاريخ: القبول: 2022/11/05	تاريخ النشر: 2022/12/31

المستخلص:

تميزت العربية عن غيرها من اللغات بكثرة معانيها الكامنة في ألفاظها، وقدرتها في القبض على الامتدادات المعنوية المشتركة في أسُسها.

ومن أغرب الظواهر اللغوية في هذه اللغة اللطيفة ظاهرة الأضداد، تلك الظاهرة التي بالرغم ما قيل عنها ويقال تظل ثابتة واقعة في العربية لا مجال لإنكار وجودها.

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على بعض آراء المتقدّمين من علماء اللغة حول ظاهرة التضاد، وبالخصوص لدى المشتغلين منهم بدراسة النص القرآني كابن قتيبة، وكذا الوقوف أيضاً على آراء المتأخِّرين منهم كالزمخشري، من أجل معرفة درجة اهتمام كل من المتقدمّين والمتأخرين بالظاهرة، والكشف عن نقاط تلاقي المتقدّمين مع المتأخرين حول وقوعها في العربية. وقد سعى البحث إلى تحقيق ذلك من خلال إجراء موازنة بين المقاربة اللغوية لعالمين من علماء اللغة هما: ابن قتيبة والزمخشري؛ مقاربتهما لهذه الظاهرة، وتناولهما لأمثلتها في العربية. انطلاقًا من اعتقادنا بتمثيلهما لِحِقبتَين زَمَنيَّتين مختلفتَين.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ فقه اللغة؛ التضاد؛ ابن قتيبة؛ الزمخشري.

Abstract

Arabic has distinguished itself from other languages by two major phenomena: polysemous words on the one hand, and the ability to permit the extension of semantic meaning on the other hand. One of the strangest linguistic phenomena in Arabic is antonymy; which, despite the controversy about it, remains established and undeniable. This study aims at identifying some of the views of the early linguists on antonymy, especially among those who study the Holy Quran, such as Ibn Qutaybah, as well as the views of late philologists such as Al-Zamakhshari. This task is carried out in view to determine the degree of interest and areas of agreement between early and late Arab linguists in this linguistic phenomenon. We seek to achieve this by balancing the views of two linguists from two different eras, Ibn Qutaybah and Al-Zamakhshari, in terms of their approach to antonymy, their analysis of some examples in Arabic.

Keywords: language, philology; antonomy; Ibn Qutaybah; Al-Zamakhshari.

1- المقدمة:

إن من أهم التفاسير وأجلّها قدراً في ميدان اللغة عامة، وفي مضمار تتبع معاني مفردات القرآن الكريم على وجه الخصوص، تفسيري ابن قتيبة والزمخشري، إذ أنهما يُمثلان مرجعين من مراجع اللغة العربية.

وعلى هذا الأساس ارتأينا أن يكون هذان الكتابان مصدرين لدراسة تستهدف الوقوف على آراء المتقدّمين من المفسِّرين كابن قتيبة، وكذا آراء المتأخِّرين منهم كالزمخشري حول ظاهرة التضاد اللغوي، كل ذلك من أجل معرفة درجة اهتمام كل من المتقدمّين والمتأخرين بالظاهرة، وما هي نقاط تلاقي المتقدّمين مع المتأخرين، ويكون ذلك من خلال إجراء موازنة بين تناول ابن قتيبة وتناول الزمخشري لهذه الظاهرة.

2- تعريف التضاد.

أ-لغة:

جاء في لسان العرب: «الضِّد، كل شيء ضاد شيئاً ليغلبه والسواد ضد البياض، والموت ضد الحياة، والليل ضد النهار؛ إذا جاء هذا ذهب ذاك. ابن سيدة (ت 458 ه): ضد الشيء وضديده وضديدته؛ خلافه الأخيرة عن ثعلب (ت 291 ه) وضده أيضاً، مثله؛ عنده وحده، والجمع أضداد، وقد ضادّه، وهما متضادّان، وقد يكون الضِّد جماعة، والقوم ضد على ضدّ واحد إذا اجتمعوا عليه في الخصومة، وفي التنزيل ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً﴾1، قال الفرّاء (ت 207 ه): يكونون عليهم عوناً. قال أبو منصور [الأزهري ت 270 ه] يعني الأصنام التي عبدها الكفّار تكون أعواناً على عابديها يوم القيامة. ورُوي عن عكرمة *: يكونون عليهم أعداءً.

وقال الأخفش* في قوله عزّ وجل ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً﴾ قال: الضِّد يكون واحداً وجماعة مثل الرصد والأرصاد، والرّصد للجماعة. وقال الفراء: معناه في التفسير: ويكونون عليهم عوناً، فلذلك وحّد. قال ابن السِّكيت (ت 244ه) حكى لنا أبو عمرو [بن العلاء ت 954ه]: الضِّد مثل الشيء، والضِّد خلافه»2.

ب-اصطلاحا:

يقول ابن الأنباري (ت 327ه) في صدر خطبة كتابة 'الأضداد: «هذا كتاب ذكر الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادة فيكون الحرف منها مؤيداً عن معنيين مختلفين»3.

فذكر في صدر التعريف ما قرّبه من الهدف، وذكر في آخر التعريف ما أوقعه في اللبس وهو قوله (مختلفين)، إذ أن الاختلاف غير التّضَاد، وهذا ما أشار إليه أبو الطيب اللغوي (ت 350ه) في تعريفه للتضاد يقول: «الأضداد جمع ضدّ وضد كل شيء ما نافاه نحو البياض والسَّواد والسّخاء والبخل»4. ويقول أيضاً مبيّناً قصور تعريف ابن الأنباري وأضرابه ممن عرّفوا الأضداد «وليس كل ما خالف الشيء ضداً له، ألا ترى أن القوة والجهل مختلفان وليسا ضدّين؟ وإنما ضدّ القوة الضعف، وضد الجهل العلم، فالاختلاف أعمّ من التّضاد، إذ كل متضادين مختلفين وليس كل مختلفين ضدّين.»5

ويبدو أن تعريف أبي الطيب اللغوي تعريف شامل واف لحقيقة التَّضاد اللغوية، مميزاً بينه وبين الخلاف، على حين خلطت بعض التعاريف بينهما. وعلى هذا الأساس يُعد تعريف أبي الطيب اللغوي- في نظرنا- منطلقاً لمفهوم التضَاد، على حين أن تعريفه للمشترك ومن ضمنه التضاد - يمكن اعتباره تعريفاً اصطلاحياً جامعاً، تسنده تآليف العلماء في التَّضاد، ذلك أن مفهوم التضاد عندهم، يكاد يستجمع مادته من ألفاظ دلّت على معنيين متضَادّين.

3- القُدَمَاء ومذهب ابن قتيبة* في التَّضَاد/:

لقد كان ابن قتيبة طويل البَاع في علوم العربية حاذقاً بها، فلا غرابة إذن أن يكون كتابه في تفسير غريب القرآن كتاباً ممتعاً مليئاً بالفرائد والفوائد اللغوية التي تنبئ عن بصر بالعربية وتضلع منها.

وقد اهتم ابن قتيبة –شأنه في ذلك شأن معاصريه- ببحوث اللغة وخاصة ما تعلّق منها بالقرآن الكريم خدمة لهذا الكتاب العظيم، ولعلَّ من بين مسائل اللغة التي نالت حظاً من الدِّراسة والتي لا تقل أهمية عن غيرها من المسائل اللغوية، مسائل دلالات الألفاظ ومن ضمنها التّضَاد.

وابن قتيبة يتناول التضاد انطلاقاً من اشتمال القرآن الكريم عليه، فذكر حروفاً منه اتفق فيها مع قدماء المفسِّرين وذكر حروفاً أُخرى لم يحصل عليها إجماع بين المتقدمِّين.

على أنّنا في تناولنا لهذا الموضوع سيتم الاقتصار على بعض التفاسير المختارة في البحث دون التفاسير الأخرى، وقد لا تخرج تلك عن هذه –من وجه نظرنا- خروجاً يستدعي إعادة النظر، بسبب رسوخ قدم أصحابها ورمز يهتم بين المتقدمين.

فمن الحروف التي ذكرها ابن قتيبة (فوق) في قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾[6] وهي عنده بمعنى فما دونها. وهنا يختلف مع الفرّاء لأن (فما فوقها) عند الفرّاء هو أكبر منها، فهو لا يستحسن كما يقول –أن تكون (فما فوقها) بمعنى فما دونها لأن البعوضة كأنها غاية في الصِّغر والقلّة فأحبُّ أن أجعل (ما فوقها) أكبر منها، ألا ترى أنك تقول يُعطى من الزكاة الخمسون فما دونها، والدّرهم فما فوقه، فيضيق الكلام أن تقول فوقه فيهما أو دونه فيهما، وأما موضع

حسنهما في الكلام فأن يقول القائل: إن فلاناً لشريف فيقول السَّامع: وفوق ذلك؛ يريد المدح، أو يقول: إنه لبخيل، فيقول الآخر: وفوق ذلك، يزيد بكليهما معنى أكبر، فإذا عرفت أنت الرجل، فقلت دون ذلك، فكأنك تحطّه عن غاية الشرف، أو غاية البخل وفوق ذلك وفوق الشرف، وإذا قلت دون ذلك فأنت رجل عرفته فأنزلته قليلاً عن درجته فلا تقولنّ وفوق ذلك إلا لمدح أو ذم.[7]

ويذهب اليزيدي مذهب ابن قتيبة بأن جعل (فما فوقها) بمعنى (فما دونها)[8] في الصِّغر. كما ضمّ الطبري رأيه إلى رأي الفرّاء في تأويل الآية ب (ما أعظم منها) لأن البعوضة –كما يقول- هي أضعف خلق الله، فإذا كانت أضعف خلق الله فهي نهاية في القلّة والضعف.[9]

ويذهب بعض المعاصرين[10] إلى أن (فوق) في الآية تدل على معناها الأصلي، أي ما يفوق الذُّبابة حقارة، فهي لم تستخدم بمعنى دون وإنما جاء هذا المدلول من مؤدّى معناها الأصلي، وقاسوا على ذلك قولهم (فُتِحَت القَنْطَرة) للمشاة أو السُّفن، إذ استعمال (فتح) في معنى يستلزم قفلها في مجال آخر فجاء التضاد من استعمال اللفظ فيما يؤدّي إليه معناه الأصلي وما يترتب عليه بالنّسبة للمَارة.

ونقول: إن لفظ (فوق) يحتمل معناه والمعنى المضاد (دون) لما ورد منهما في كتب التفسير وحتى في استعمال العرب؛ فمن قال (فوق) بمعنى (دون) فهي بمعنى الصِّغر والحقارة، ومن حملها على معناها الأصلي فهي بمعنى أكبر منها شأناً وحجماً.

غير أن ما ذهب إليه محمد توفيق شاهين من أن هناك شواهد صريحة فصيحة حول ضدية الحرف(فوق)، فلم نظفر ولو برأي واحد في كتب الأضداد المتيسرة.[11]

وذكر السّجستاني[12] أن الأخفش فسّر قوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾ بما دونها غير أننّا نجد الأخفش في معانيه يذكر الوجهين دونما ترجيح بينهما يقول: (فما فوقها) قال بعضهم أعظم منها وقال بعضهم [أصغَر منها]* كما تقول فلا صغير، فيقول وفوق ذلك يريد أصغر من ذلك.[13]

وبهذا يكون حرف (فوق) الذي يمثل الحروف التي من أصل الاتساع يقع بمعنييه المتضادين عند القدماء بمن فيهم ابن قتيبة.

وعند تأويل قوله تعالى: ﴿إنّ السَّاعَةَ آتيَةٌ أكاد أُخْفيها﴾[14] يلتقي ابن قتيبة[15] مع الفرّاء[16] والطبري[17] حين فسروا الآية بـ(أَكَادُ أُخفِيهَا مِنْ نَفْسِي) استناداً إلى قراءة أبي [بن كعب] (أَكَادُ أُخفِيهَا مِنْ نَفْسِي)، وعلى هذا ف(أخفيها) ليست من الأضداد عندهم لمخالفتها لنص قرآني وإن كان غير مقروء به.

بينما يجوّز كل من اليزيدي[18] والسِّجستاني[19] أن تجئ أيضاً بمعنى (أُظْهِرُها) وقد يكونا مستندين في ذلك إلى قراءة سعيد بن جُبير (أَخْفِيهَا) بالفتح، و(أَخفى) لغة واردة في كلام العرب.

ويلتقي ابن قتيبة[20] مع الفرّاء[21] واليزيدي[22] والطبري[23] والسجستاني[24] على أن معنى (مَسْجُور) في قوله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾[25] هو مملوء، ويجمعون أيضاً على أن (الظن) في قوله تعالى: ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض﴾[26] وقوله: ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾[27] وقوله: ﴿الذينَ يَظُنُّون أَنّهُم مُلاَقُوا رَبّهِمْ﴾[28] وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَرَأَى المُجْرِمُونَ النّار فَظَنُّوا أَنّهُم مُوَاقعُوهَا﴾[29]، ﴿ الذينَ يَظُنُّون أَنّهُم مُلاَقُوا الله ﴾[30] في كل ذلك بمعنى اليقين.

ومما أَجمع عليه المفسرون وتساوقت نظرتهم فيه مع نظرة ابن قتيبة كثيرة شواهده: ك(الصريم)، (القانع)، (سامدون)، و(ظن) بمعنى شك في مثل قوله تعالى: ﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً﴾[31]، وك(صريخ)، (عفى) (شرى) و(تهجّد).

وأغلب حروف التضاد التي تناولها المتقدمون. ومن ضمنهم ابن قتيبة –حروف اختلفوا فيها- ولعلّ مردّ ذلك إلى اختلاف معنى الحرف الواحد بين قبائل العرب؛ فقد يفيد الحرف معنىً عند قبيلة معينة، ويفيد المعنى الضد عند قبيلة أخرى مثال ذلك (اشترى) بمعنى (باع) بلهجة هذيل، (عَسْعَسَ): أدبر عند قريش، وكذلك (يرجو) يخاف بلهجة هذيل، (السَّامد) اللاهي عند أهل اليَمن والحزين عند طئ. وأيضا حرف (وراء) تعني أمام بلغة النبطية، وبهامش تفسير الجلالين (السيوطي والمحلي) رسالة جليلة في لغات القبائل للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام وفيها من حروف التضاد[32].

وإذا كان ابن قتيبة –واستنتاجاً مما سبق- قد اتفق في كل ما ذُكر من حروف الأضداد مع المفسّرين من القُدماء، فإن هناك حروفاً أخرى لم يوافقهم فيها وانفرد بها.

ومن هذه الحروف (يرجو) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لقَاء رَبّه﴾[33] قال: أي يخاف لقاء ربّه وإلى مثل ذلك ذهب سهل السِّجستاني، فهذا التأويل لا نجد له سنداً عند بعض قدامى المفسِّرين، فقد فسَّروا هذا الحروف على بابه أي «من كان يعتقد بملاقاة ربّه أو برجوعه إليه يوماً ما فليعمل العمل الصالح». والذين ذهبوا –من أهل اللغة- إلى أن الرجاء قد يكون بمعنى الخوف.. هم نفر قليل بالرغم من أنه لسان هذيل –وهي من هي في الفصَاحة والشُّهرة، وفي هذا غلَّط ابن الأنباري سهل السجستاني وقال بأن العرب لا تذهب بالرجاء مذهب الخوف إلا مع حروف الجحد[34].

وهناك حروف أخرى ذكرها ابن قتيبة وعدّها من الأضداد، منها (لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿فجَاجَاً سُبُلاً لَعَلَّهُم يَهْتَدُونَ﴾[35] قال: أي ليهتدوا[36]، و(بعض)، و(كل) في قوله تعالى: ﴿يأتيها رزقها من كل مكان﴾[37]، و قوله تعالى: ﴿وَلأُبَيّنَ لَكُمْ بَعْضَ الذي تَخْتَلفُونَ فيه﴾[38] وغيرها، فالأول معناه من بعض الأمكنة، أما الثاني، فمعناه «كل الذي تختلفون فيه».

والحق أن ابن قتيبة يُسمى هذا النوع بالمقلوب[39] ويُدخلُه في باب الأضداد ويستشهد له.

ويتّضح مما سبق أن هناك حروفاً من الأضداد لا يختلف فيها ابن قتيبة مع المفسّرين القدماء وبخاصة تلك الحروف التي يرجع أصلها إلى معنى واحد وإنما أطلق الثاني على جهة الاتساع، بينما الحروف التي يرجع أصلها إلى اختلاف القبائل وألسنتها فقد اختلف فيها ابن قتيبة مع المفسِّرين القدماء، وهناك حروف –وإن عدّها ابن قتيبة من الأضداد- إلا أنها يمكن اعتبارها جارية مجرى التّضاد، على قلة ورودها الأخير في اللغة بشكل عام والقرآن الكريم بشكل خاص، مما يفتح المجال أمام التأويلات الكثيرة للحرف الواحد، دون الإخلال بالمعنى المقدَّر له. وعلى هذا يمكن أن نعد ابن قتيبة من الموسعين في الأضدَاد.

4- المتأخِّرون ومذهب الزمخشري في التَّضَاد/:

يُعد الكشاف للزمخشري مرجعاً هاماً في علوم العربية وتتبع معانيها وهو أحد ذخائر لغة الضاد، فقد كان صاحبه عالماً عبقرياً فذّاً في التفسير واللغة والنحو وغيرها، مما رشح هذا التفسير لأن يكون مرجعاً لكل من يعنيه تتبع مسائل اللغة في القرآن الكريم.

وقد تناول الزمخشري الغريب من القرآن بالتفسير كما تناول غير الغريب أيضا، فقد كان تفسيره تفسيراً عاماً، وعلى هذا فقد تناول الزمخشري* حروفاً من الأضداد في غير ما موضع من كشافه.

غير أنّه وإن كان مثبتاً لبعض حروف الأضداد –ضمناً- فهو لا يصرّح بأنه هذا الحرف أو ذاك من الأضداد مما يرّجح أن الزمخشري لم يكن يفسِّر الحرف إلا برأيه، فهو لا يقيّد نفسَه بما جاء عن قُدَمَاء اللغويين والمفسِّرين من أن هناك حروفاً تناقلوها بينهم أجيالاً فأجيالاً على أنها من الأضداد، وما يقوي هذا الترجيح هو أن تفسير الزمخشري يعد تفسيراً عقلياً أو ما يصطلح عليه أهل التفسير بالتفسير بالرأي.

وسَنُورد بعض ما جاء عنده من حروف ذهب بها مذهب التضاد، مع إجراء موازنة في ذلك بما ورد عند المتأخّرين من المفسِّرين، غايتنا في ذلك معرفة مذهب الزمخشري في الأضداد.

والتفاسير التي سنتناولها –بالإضافة إلى تفسير الزمخشري- هي تفسير الجواهر الحسان للثعالبي (ت 875هـ)، تفسير ابن كثير، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وغيرها.

فمما ذكره الزمخشري من حروف الأضداد حرف (عَسْعَسَ)[40]، ويذهب بها إلى معنى أدبر، بينما يُجمعُ الثعالبي[41] وابن كثير[42] والقرطبي[43] على أن معنى (عَسْعَسَ) هو ابتداء الظلام من أول الليل وإدباره في آخره، وقد ذكر ابن كثير أن كثيراً من عُلَماءِ الأصول يذهبون إلى ذلك[44].

ولعلّ وقوع المعنيين المتضادين على هذا الحرف يؤيده المعنى المعجمي لعَسْعَسَ فقد جاء من العسَسَةِ والعَسَاسِ، والعسَسَهُ والعَسَاسُ رقّة الظلام وذلك في طرفي الليل.[45]

و(ظنَّ) عند الزمخشري تفيد اليقين كما تفيد الشك يقول في قوله تعالى: ﴿وأنَّا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا﴾[46] الظن هنا بمعنى اليقين.[47]

وذهب بقوله تعالى: ﴿وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً﴾[48] مذهب الشك.[49]

ومن الأضداد التي يُخرجها عن معنى الضِّدية بتأويل بعيد يَشُطُّ به عمّا أقَرَّهُ المفسِّرون قوله في قوله تعالى: ﴿إنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ أَكَادُ أُخْفيهَا﴾[50] قال: أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها،[51] وهذا التأويل فيما يبدو جانب فيه الزمخشري الصَّواب فقوله تعالى صريح بأن الساعة آتية، وذهب هو إلى نفي ذلك، والصواب أن نحمل مثل هذه النصوص القرآنية على ظاهرها.

ولكن –رغم ذلك- فإن الزمخشري يجوز معنى (أُظهرها) راداً في ذات الحين قراءة أبي بن كعب (أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي) بحجة أن لا دليل على المحذوف والمحذوف لا دليل عليه مطّرح.[52]

ويخالف القُرطبي الزَّمخشري في تأويل قوله تعالى: ﴿إنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ أَكَادُ أُخْفيهَا﴾ فعنده: أكاد آتي بها ودلَّ (آتية) على آتي بها ثم قال أُخفيها على الابتداء،[53] على أنّه يرفض أن تكون (أَخفيها) أظهرها مضيفاً رأيه إلى رأي أبي جعفر النحاس من أن (أَخفيها) بالفتح قراءة شاذة ولا يمكن أن تُرَدَّ القراءة الصَّحيحة إلى الشّاذة.[54]

كما ينكر الثعالبي أن تكون (أُخفيها) من الأضداد فقال: «وقرأ الجمهور (أُخفيها) –بضم الهمزة- فقيل معناه أُظهرها وزعموا أن أخفيت من الأضداد.»[55]

ولعلَّ الذي أدّى بهؤلاء المفسِّرين إلى الاختلاف في هذا الحرف هو الخلط الذي وقع لبعضهم بين الصيغتين الصرفيتين (أُخْفِي) بالضم، و(أَخْفِي) بالفتح. ف(أَخْفي) بالفتح وهي قراءة سعيد بن جبير وتقع على الستر كما تقع على التغطية و(أَخفى) ك(خَفى) غير أن (خَفَى) لا يقع إلا على أَظْهَر بخلاف (أَخفى) المزيد، أما (أُخفي) بالضم فلا تقع إلا على الستر والتغطية. وقد نصّ أبو بكر بن الأنباري على أن خفيت: أظهرت ولا يقع هذا –أي الذي لا ألف فيه- على الستر والتغطية[56] و(الوراء) عند الزمخشري اسم للجهة التي يواليها الشخص من خلف أو قدّام وبذلك فسَّر قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾[57] أي قدّامهم، وهو عند الثعالبي على بابه وذلك

أن الألفاظ –كما يقول- إنما تجئ مراعى بها الزمان وذلك أن الحادث المقدّم الوجود هو الأمام والذي يأتي بعده هو الوراء، ومن قرأ (أمَامَهُم) [وهي قراءة عبد الله بن مسعود] أراد في المكان.[58]

والقول بأن (وراء) تعني أمام غير مستقيم عند القرطبي، بل ويُخرج هذا الحرف من الأضداد. وقد رُويَ أن أبا اسحاق الزّجاج (ت 311هـ) وابن عرفه (محمد بن محمد المالكي) (ت 803هـ) أنهما كانا يرفضان أن يكون هذا الحرف من الأضداد. يقول ابن عرفه في هذا الشأن: «يقول القائل كيف قال من وراءه وهي أمَامَه فزعم أبو عبيد وأبو علي قطرب أن هذا البيت من الأضداد وأن وراء بمعنى قدّام، وهذا غير محصل لأن أمَام ضد وراء.[59]

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه ليس كل ما ورد في القرآن الكريم من حرف «وراء» بمعنى (قدّام) أو (أمام) بل جاءت بعضاً منها دالة على ولد الولد كقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بإسْحَاقَ وَمنْ وَرَاء إسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[60] سأَل ابن عباس (68هـ) رجلاً من هذيل عن رجل فقال: مات، وترك كذا وكذا من الولد وثلاثة من الوراء أي ولد الوالد، وذكر الفرّاء عن بعض المشيخة قال: أقبل الشعبي ومعه ابن له فقيل له: أهذا ابنك؟ فقال: هذا ابني من الوراء يريد من ولد الولد.[61]

وإذا كان لنا أن نبدي رأيا فيما ذهب إليه الزمخشري في تأويل يُعتقد أنّه من الأضداد، فإننا نشير إلى تفرُّد الزمخشري برأي خاص يقوم على إيراد الحرف الواحد دون الاعتقاد بضديته، مما يفسِّر سكوته عن الإدلاء برأي صريح فيه، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأنه كان أميل إلى إنكار التضاد فيما أورده من حروف يذهب بعض المفسِّرين إلى الإقرار بمبدأ الضدية فيها، وإن كان يُقرُّ أمر التّضَاد في بعض ما أورده موافقاً لهم فيه. وبين ذاك السُّكوت وهذا الإقرار يتّضح مذهب الزمخشري الذي ينحو نحو الاعتدال.

5- المَوَازنة بين مذهبي ابن قتيبة والزمخشري/:

آن لنا الآن أن نوازن بين مذهبي ابن قتيبة والزمخشري في التضاد مبرزين مدى استيعاب المتقدمين والمتأخّرين من المفسِّرين لمفهوم التَّضاد، واستقراء حروفه، وعلل وروده عند اللغويين.

5-1- الحروف التي يرجع أَصلُها إلى اختلاف اللَّهَجَات/:

إن هناك جملة من حروف التّضاد يرجع أصلها إلى اختلاف اللهجات؛ ذلك أنه قد يكون للحرف الواحد معنى معين في لهجة ما ويفيد في الوقت نفسه معنى مضاداً في لهجة أُخرى مثل: (المسْجُور) مثلاً فهو يعني الممتلئ بلغة عامر بن صعصعة، وفي سائر لغات العرب يعني الفارغ و ك(اشترى) باع بلهجة هذيل وهي على بابها عند سائر العرب، (يرجو) يخاف بلهجة هذيل، وعند سائر العرب على بابها وقد ذكرنا قبل أن للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام رسالة في لغات القبائل وفيها من حروف التّضاد.[62]

ثم إن هذه اللهجات امتزجت بعضها وبعض، وأصبح الحرف الواحد من اللهجة الواحدة مؤيداً عن معنيين متضادين.

وظاهر أن امتزاج هذه اللهجات وتداخل بعضها في بعض لم يتم مرّة واحدة أو في زمن واحد، بل حدث شيئاً فشيئاً، فسَار يتنقل تدريجياً فكانت الواحدة من اللهجات تبتلع الأخرى أولاً ثم تتكون من الاثنتين لهجة جديدة لم تكن قبل،[63] وبهذا ينشأ الحرف في هذه اللهجة الجديدة يحمل المعنيين المتضَادين كليهما.

ومن خلال ما مرّ بنا من أمثلة المفسِّرين؛ متقدمين ومتأخِّرين وصلنا إلى نتيجة مفادها أن ما ذُكر عند المتقدمّين من المفسِّرين من حروف الأضداد التي يرجع أصلها إلى اختلاق اللهجات يفوق ما ذُكر عند المتأخرين.

وقد يُمثل ذلك من خلال موازنة بين ابن قتيبة والزمخشري؛ فابن قتيبة ذكر ستة حروف بمعنيها المتضادين وهي[64] ﴿شَرَوْا﴾[65]، ﴿وَرَاءَهُم﴾[66]، ﴿عَسْعَسَ﴾[67]، ﴿يَرْجُو﴾[68]، ﴿قُرُوء﴾[69]، ﴿سُجّرت﴾[70] بينما نجد عند الزمخشري ثلاثة حروف فقط وهي[71]: ﴿وَرَاءَهُم﴾، ﴿سُجّرت﴾، ﴿سَامدُون﴾[72].

ويبدو من خلال ما سبق أن المتقدمين من المفسّرين بما توفّر لهم من إدراك عصور المشافهة التي انتهت في حدود نهاية القرن الرابع من الهجرة، قد تمكنوا من التعرّف على دلالة الحروف المتضادة من خلال ما سمعوه من أهل اللغة المشافهين للأعراب، الشيء الذي لم يتوفر للمحدثين من المفسِّرين، فرَجَعوا إلى ما دُوِّن في كتب التفسير فأخذ بعضهم منه ما

يتسَاوق ونظرته، وفسَّر ذلك برأيه وأخضعه لمنطقه، ومن ثم عُرف ما يسمى في عرف المفسرين بالتفسير بالرأي، بينما نقل بعضهم الآخر ما وجده في بطون كتب المتقدّمين نقلاً دونما مناقشة، قد تكون صادرة عن تعبُّد أو إقرار برأي سابق في المسألة الواحدة.

5-2- الحروف التي يرجع أصلها إلى التداخل على جهة الاِتِّسَاع/:

قد تُفسَّر الأضداد من حيث نشوؤُها من جانب آخر غير جانب اختلاف اللَّهجَات؛ ذلك أنَّه قد يكون الأصل لمعنى واحد ثم تداخل المعنى الثاني على جهة الاتِّساع، وبهذا تفسر حروف كـ: ﴿فوقها﴾[73]، ﴿ظنَنَّا﴾[74]، ﴿أَسَرُّوا﴾[75]، ﴿صَريخ﴾[76]، وغيرها.

ويمكننا عقد موازنة بين كل من ابن قتيبة والزمخشري حول ما ورد في كتابيهما من شواهد هذا الأصل؛ فمما تعرض له ابن قتيبة حرف(ظن)[77]، في قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾[78]، وحرف (الصريم) في قوله تعالى: ﴿فأصبحت كالصريم﴾[79] وحروف (فوق) في قوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾[80] ولم يتعرض ابن قتيبة لغير هذه الأحرف الثلاثة. أما الزمخشري فقد تعرض لأربعة حروف[81] وهي (أَسَرَّ) في قوله تعالى: ﴿وأسرو الندامة﴾[82] وحرف (صريخ) في قوله تعالى: ﴿لا صريخ لهم﴾[83]، وحرف (ظن) في قوله تعالى: ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض﴾[84] وحرف (غابر) في قوله تعالى: ﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾.[85]

والملاحظ أن ابن قتيبة وبالرغم من قلّة ما ورد عنه فإنه في الحقيقة ينبّه على أن هذا الحرف أو ذاك من الأضداد. بينما لا ينّبه الزمخشري على ذلك عدا حرف (صريم)، وقد يؤوله تأويلاً يخرج به عن الضِّدية، مما يدل على أن سكوت الزمخشري عن الإقرار بالضدية والخروج بها إلى تأويلات أخرى إنما هو استجابة لمبدأ اعتماد الرأي، ونزعة الرأي هذه أخذت في الحقيقة تستوي وتنمو منذ نهاية القرن الرابع للهجرة ونهاية مشافهة الأعراب واختلاط الأَلسنة وشيوع الكذب في الروايات.

5-3- الحروف التي يرجع أصلُها إلى عوامل تصريفية واشتقاقية/:

إن هناك حروفاً من الأضداد جاءت من عوامل تصريفية وأخرى اشتقاقية، منها ﴿تَهَجَّد﴾[86] التي عدّها الزمخشري من السّلب ك(تَأَثّم) وهو ترك الإثم و(تَحَرّج) وهو ترك

الحرج، بينما لم يتعرض لها ابن قتيبة، ومنها ﴿القَانع﴾[87] من قَنَعَ يَقْنَعُ قنوعاً، إذا سأل وقَنِعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً وقَنَعَاناً إذا رضي. ومنها ﴿أُخفيها﴾[88] فأخفيها بالضَّم تعني أسترها أمّا (أَخفيها) بالفتح فهي من أَخْفى يَخْفِي وهي كـ(خَفَى) يخفي التي لا تعني الستر والتغطية مطلقاً. وعندما كانت (أَخْفَى) كـ(خَفَى) جعلهما المفسِّرون سواء، غير أن أَخفى قرأ بها سعيد بن جبير وهي قراءة شاذة، ولهذه العلّة رفضها البعض وبالتالي رفض أن تكون (أُخفيها) من الأضداد.

هذا وهناك من يجوّز أن تكون (أُخْفيها) بمعنى أُظْهِرُهَا –كما أشرنا آنفاً جاعلاً من (أَخفيها) و(أُخفيها)؛ سَيّان.

وقد تأول هذا الحرف كل من ابن قتيبة والزمخشري بتأويلات خرجت به عن معنى الضِّدية؛ فابن قتيبة استند فيها إلى نص قرآني غير مقروء به وهو قراءة أُبي بن كعب،[89] أما الزمخشري فقد تأولها تأَوُّلاً جانب فيه الصَّواب.[90]

ومن هنا تظهر سمات كل مذهب من مذهبي الرجلين، أما ابن قتيبة فقد كان نقلياً وأما الزمخشري فقد كان عقلياً.

6- خاتمة:

إن كلاً من ابن قتيبة والزمخشري يمثل مذهباً قائماً بذاته له خصائصه ومميزاته؛ فقد كان ابن قتيبة معترفاً بالأضداد منتصراً لها وموسعاً فيها إلى حدِّ إخراج بعض ما جاء به من باب التضاد.

أما تعرض الزمخشري لبعض حروف التضاد حيناً وسكوته عن حروف أخرى حيناً آخر، قد يكون ناتجاً عن رؤية معتدلة لظاهرة الأضداد؛ فاعترافه بالبعض وعدم اعترافه بالبعض الآخر وتأويله له تأويلاً يخرج به عن الضدية، يحمل على الاعتقاد بأنه كان لمذهب الإعتدال أميل.

هذا ونستطيع أن نجعل من ابن قتيبة والزمخشري مثالين للمتقدمين من المفسِّرين والمتأخِّرين منهم، لمعرفة إلى أي مدى أثبت المتقدمون والمتأخرون هذه الظاهرة مع موازنة بينهما تستهدف معرفة الحروف حَسْبَ عِلَل ورودها في العربية عند كل منهما.

هوامش البحث.

[*] أستاذ الصوتيات وعلم اللغة بكلية الآدب واللغات بجامعة أدرار.

[1] سورة مريم: 12.

[*] هو عكرمة بن عبد الله البربري ابو عبد الله مولى ابن عباس تابعي موثوق بعدالة ودينه روي عن مولاه وعن علي بن أبي طالب وعائشة وأبي هريرة وغيرهم له «تفسير القرآن» توفي 105هـ

[*] الأوسط ت 215هـ

[2] ابن منظور، 3: 273 والزبيدي تاج العروس 1: 310، ينظر: الجوهري مختار الصِّحاح ص 371.

[3] ابن الأنباري، الأضداد (المقدمة).

[4] أبو الطيب اللغوي، الأضداد (المقدمة)، نقلاً عن توفيق محمد شاهين المشترك اللغوي نظرية وتطبيقاً، ص 124.

[5] نفسه، ص 124.

[*] هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة المروزي عالم جليل كان ديّنا ورعاً ولد سنة 213هـ في أواخر خلافة المأمون، كان موسوعة في الفقه واللغة وعلوم القرآن وغيرها، له تصانيف كثيرة أشهرها تفسير غريب القرآن وتأويل مشكل القرآن، توفي 276هـ

[6] سورة البقرة: 26.

[7] معاني القرآن 1: 21020.

[8] غريب القرآن وتفسيرهُ، ص 66.

[9] جامع البيَان 1: 180.

[10] وهو علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص 190، نقلاً عن توفيق محمد شاهين –المشترك اللفظي- ص 158.

[11] أضداد السِّجستَاني والصاغاني(ضمن ثلاثة كتب)، ص 101

[12] الأضداد له (ضمن ثلاثة كتب)، ص 101.

[*] زيادة يقتضيها السِّياق.

[13] معاني القرآن 1: 53.

[14] سورة طه: 15.

[15] تفسير غريب القرآن، ص 277.

[16] معاني القرآن 2: 172

[17] جامع البيان 16: 150.

[18] غريب القرآن وتفسيره، ص 244.

[19] غريب القرآن، ص 28.

[20] تفسير غريب القرآن، ص 516.

[21] معاني القرآن 3: 91/ 3: 192، 193.

[22] غريب القرآن وتفسيره، ص 350، 68.

[23] جامع البيان 27: 19/ 1: 262.

[24] غريب القرآن، ص 178-213.

[25] سورة الطور: 6.

[26] سورة الجن: 12.

[27] سورة البقرة: 23.

[28] سورة البقرة: 46.

[29] سورة الكهف: 53.

[30] سورة البقرة: 249.

[31] الجن: 5.

[32] 1: 126/ 2: 10/ 2: 193/ 2: 254 وغيرها

[33] سورة الكهف: 110.

[34] الأضداد له، ص 17.

[35] سورة يوسف: 20.

[36] تأويل مشكل القرآن، ص 188.

[37] سورة النحل: 112.

[38] سورة الزخرف: 63.

[39] تأويل مشكل القرآن، ص 188 وما بعدها، وقد اعتمدنا تأويل المشكل في هذا المقام لتناوله مضمون الآية نفسها مما يفسِّر سكوته عنها في تفسير غريب القرآن، وما يبرّر هذا الاعتقاد هو أسبقية تصنيف تأويل مشكل القرآن و أما تفسير غريب القرآن فما هو إلا جزء متمم له.

[*] هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري إمام كبير في الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعاني، والبيان وغيرها بلا معاني، كان معتزلي العقيدة شافعي المذهب، له تصانيف كثيرة ذكرها الأستاذ إبراهيم الدسوقي في نهاية تفسير الكشاف (4: 307) أشهرها تفسيره (ت 538هـ)

[40] سورة التكوير: 17.

[41] الجواهر الحِسَان في تفسير القرآن 4: 572.

[42] تفسير القرآن العظيم 4: 479.

[43] الجامع لأحكام القرآن 19: 238.

[44] ينظر تفسير القرآن 4: 479.

[45] الراغب الأصفهاني معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص 346.

[46] سورة الجن: 12.

[47] الكشاف 4: 169.

[48] سورة الجن: 5.

[49] الكشاف 4: 167.

[50] سورة طه: 15.

[51] الكشاف 2: 532.

[52] نفسه 2: 532.

[53] الجامع لأحكام القرآن 11: 183.

[54] نفسه 11: 183.

[55] جواهر القرآن 3: 44.

[56] الأضداد، ص 96.

[57] سورة الكهف: 79.

[58] الجواهر الحسان 2: 534.

[59] الجامع لأحكام القرآن 11: 35.

[60] سورة هود: 71.

[61] ابن الأنباري، الأضداد، ص 69.

[62] الجلالين (السيوطي، المحلي) تفسير القرآن العظيم (ط دار إحياء الكتب العلمية) (الهامش)1: 126 2: 10، 193، 205 وغيرها.

[63] إسرائيل ولفنسون، من تاريخ اللغات السامية، ص 167.

[64] سورة البقرة: 102/ سورة الكهف: 79/ سورة التكوير: 17/ الكهف: 110/ البقرة: 228/ التكوير: 6.

[65] تأويل مشكل القرآن، ص 188.

[66] تفسير غريب القرآن، ص 270.

[67] نفسه، ص 517.

[68] نفسه، ص 271.

[69] نفسه، ص 86.

[70] نفسه، ص 516.

[71] الكشاف 3: 510/ 4: 222/ 4: 35.

[72] سورة النجم: 20.

[73] سورة البقرة: 26.

[74] سورة الجن: 12.

[75] سورة يونس: 54.

[76] سورة يس: 43

[77] تفسير القرآن، ص 93، 479، 44.

[78] سورة البقرة: 249.

[79] سورة القلم: 20.

[80] سورة البقرة: 26.

[81] الكشاف 2: 241/ 3: 324/ 4: 169/ 3: 126.

[82] سورة يونس: 74.

[83] سورة يس: 43.

[84] سورة الجن: 12.

[85] سورة الشعراء: 171.

[86] سورة الإسراء: 79.

[87] سورة الحج: 22.

[88] سورة طه: 15.

[89] تفسير غرب القرآن، ص 277.

[90] الكشَّاف 2: 532.

قائمة المصادروالمراجع:

القرآن الكريم

- ابن الأنباري، محمد بن القاسم (أبو بكر) ت 377هـ(1407هـ - 1987م)، كتاب الأضداد تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- الأصفهاني: (الراغب) ت 503هـ (د.ت.)، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- أوغست هفنر،(د.ت.)، 1912ثلاثة كتب في الأضداد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- إسرائيل، ولفنسون،(1980م)، من تاريخ اللغات السَّامية، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1.

- توفيق محمد شاهين،(1400هـ/ 1980م.)، المشترك اللغوي نظرية وتطبيقاً، مطبعة الدعوة الإسلامية، ط1.
- الثعالبي ت 875هـ، (1985م)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: عمّار الطالبي المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- الزمخشري، محمود بن عمر (أبو القاسم) ت 538هـ، (1397 – 1977م)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، ط1،
- السُّيوطي/: جلال الدين عبد الرحمان، ت911هـ
  - (د.ت)،المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وضبط: جاد المولى ومحمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، دار الفكر، بيروت، لبنان.
  - (1414هـ - 1964م)، بغية الوعاة في طبقات في اللغويين والنحاة، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط1.
  - (1370هـ/1950م)، الإتقان في علوم القرآن، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة،
- السَّجستاني، محمد بن عزيز (أبو بكر) ت 330هـ (1990م)، تفسير غريب القرآن المسمى (بنزهة القلوب)، طبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.
- الطبري، محمد بن جرير (أبو جعفر) ت 310هـ (1405هـ - 1984م)، جامع البيان في تفسير آي القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- الفرّاء، يحي بن زياد (أبو زكريا) ت 207هـ (1980م)، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2.
- القرطبي، محمد بم أحمد (أبو عبد الله) ت 671هـ (1405هـ - 1985م)، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (أبو أحمد) ت 272هـ (1398هـ 1978م)، تفسير غريب القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

– (د.ت)، تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

- ابن كثير، إسماعيل بن كثير (أبو الفداء) ت 774هـ (د.ت)، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العلمية لعيسى البابي الحلبي، د.ت.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (أبو الفضل) (1900م – 1374هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.
- اليزيدي، عبد الله بن يحي (أبو عبد الرحمان) ت 237هـ (1405هـ - 1985م)، غريب القرآن وتفسيره، تحقيق وتعليق: محمد سليم الحاج، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1.